آراء اناتول فرانس (١)

— ١ —

« من أعمال البشر كلها احد عاملين : الجوع والحب . لقد علّم الجوع المتوحشين ان يقتلوا وان يخوضوا غمار الحروب والغارات . اما الشعوب المتمدنة فهي ككلاب الصيد : تهيجهم غريزة فاسدة الى الهدم بلا سبب اوجدوى . ويدعى جنون الحروب الحديثة مصلحة ملكية . اومبدأ قوميات . اوتوازناً اوربياً . اوشرفاً . ولعل هذا العامل الاخير أبعدها عن المعقول ، اذ ما من أُمة الا احتملت كل المهانات التي قدر لجماعة من الناس ان تنزل بساحتهم وعلى كل ان كانت لا تزال عند الشعوب بقية شرف فأعجب الوسائل الى صيانتها إشعال نار الحرب : اي ارتكاب كل الجرائم التي تعرّي الفرد من شرفه : الحرق والنهب والقتل وهتك الاعراض . اما الاعمال التي يوحي بها الحب فهي عنيفة جنونية فظيعة بقدر الاعمال التي يوحي بها الجوع حتى يحق القول ان الانسان وحش شرّير .

— ٢ —

لا اعتقد ان البشر أخيار بالفطرة . وأرى انهم على الضد من ذلك ، لا يخرجون من وحشيتهم الاولى الا ببطء وجهد ، لينظموا نظامي عدل غير اكيد وخير غير دائم ، ولا يزال بعيداً الزمن الذي يصبحون فيه وادعين يعطف بعضهم على بعض . ولا تقاتل أُمة منهم أُمة بل تخبأ الصور التي تمثل الحروب لانها منافية للأخلاق الحسنة يخجل منظرها الناظرين . وأرى ان ملكوت العنف سيدوم طويلاً . وان الشعوب لن يكف احدها عن تمزيق الآخر لأسباب تافهة . وان ابناء الشعب الواحد سيسلب بعضهم بعضاً القوت الضروري بدلاً من ان يتقاسموه قسمة عادلة . ولكني على يقين من ان البشر أقل وحشية وفظاظة اذا كانوا أقل بؤساً وشقاء ، وان ترقي الصناعة سيؤدي في النهاية الى تلطيف الطباع . لقد قال لي عالم نباتي ان شجر البوت اذا نقل من ارض جرداء الى ارض خصبة تبدل بشوكه زهراً .

---

(١) منتخبات من كتيّب وقع في ١٤٣ صفحة صغيرة ترجمة السيد عمر الفاخوري مصدرة بمقدمة للاستاذ السيد أمين الريحاني قدمته مجلة منيرفا هدية الى مشتركيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— ٣ —

ليس موضوع الفن الحقيقة . ينبغي ان تُطلب الحقيقة في العلوم لان موضوعها الحقيقة ولا ينبغي ان تطلبها في الأدب الذي لا يصح ان يكون موضوعه شيئًا غير الجمال .

— ٤ —

ليست الحقائق العلمية محبّبة الى قلوب العامة . فان الشعوب تحيي بالميثولوجيا وتتناول من الاساطير كل مبادي العرفان التي تحتاج اليها . وقليلة ما هي : ان بضع اكاذيب كافية لاسعاد ملايين من الناس و بالجملة ليس للحقيقة سلطان على البشر ولو كان لها سلطان لكان هذا مدعاة أسف لان الحقيقة مضادة لطبيعتهم بقدر ما هي مضادة لمصالحهم .

— ٥ —

اكثر ما يتنازع الناس على ألفاظ . ومن اجل ألفاظ يقتلون ويُقتلون بطيب خاطر .

— ٦ —

يثور المرء اذا غُلِب . اما الغالبون فلا يكونون عصاة ثائرين .

— ٧ —

كل ذي حياة غذاء لمن يجيء بعده . والعربي الذي يبني كوخه برخام هيا كل تدمر أعقل من كل حَفَظَة المتاحف في لندن و باريس ومونيخ .

— ٨ —

هل يوجد تاريخ منصف ؟ بل ما التاريخ ؟ هو تمثيل الحوادث الماضية بالكتابة . ولكن ما الحادث ؟ أهو اي حادث كان ؟ كلا بل هو حادث جدير بان يذكر . كيف يحكم المؤرخ على الحادث بانه جدير ام غير جدير بالذكر ؟ يحكم المؤرخ اعتباطاً بفعل ذائقته وطبعه ورأيه اي بصفته فنّاناً . ذلك ان الحوادث ليست بطبيعتها على نوعين : الحوادث التاريخية والحوادث غير التاريخية . ثم ان الحادث شيء عويص مركب فهل ينقل المؤرخ الحوادث كما هي في تركيبها ؟ هذا مستحيل فانه يعرضها مجردة من كل الخصائص التي تقوم بها ناقصة مشوهة مختلفة عن حقيقتها اما علاقات الحوادث فيما بينها فالأفضل ان لا نذكر عنها شيئًا : اذا كان الحادث الذي يسمى حادثاً تاريخياً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ناشئًا — وهو الاقرب الى التصديق — عن حادث او عن بضعة حوادث غير تاريخية ، اذاً مجهولة ، فكيف يستطيع المؤرخ ان يعيّن الصلة بين هذه الحوادث في تسلسلها ؟ واني لأفرض فيما أقوله الآن ان المؤرخ ينظر في شهادات صحيحة ثابتة على حين انه بالحقيقة مخدوع في أكثر الأحوال ، وانه لا يثق بهذا الشاهد او بذاك الا لدواعٍ عاطفية . ليس التاريخ بعلم بل هو فن ولا ينجح فيه الا صاحب المخيلة .

— ٩ —

ينسخ المؤرخون بعضهم عن بعض فيكفون انفسهم العناء ولا يتّهمون بالغرور . اقتدِ بهم ولا تكن مبتكراً ؛ فان المؤرخ المبتكر موضع ريبة واحتقار واشمئزاز عند الناس كافة .

— ١٠ —

لا تدوم الممالك بحكمة بعض الوزراء ورجاحة عقولهم بل بحاجة الملايين من الناس الذين يحترفون لكسب معاشهم ضروب الحرف الدنيئة كالصناعة والتجارة والزراعة والجندية والملاحة . فان هذه الصغائر هي التي تؤلف ما يسمونه : عظمة الشعوب ، وليس فيها للأمير ووزرائه ادنى نصيب .

— ١١ —

الحقيقة هي ان الحرب من لوازم الطبيعة الانسانية وانه يتعذر تصور شعوب لا يحارب بعضها بعضاً أعني لا يكونون قتلة نهّابين محرقي القرى كذلك يتعذر تصور ملك او امير ليس بمغتصب وان قليلاً ، لئلا يُزدرى ويلام على زهده في المجد أشد اللوم . الحرب اذاً ضرورية للانسان بل هي ألزم لطبعه من السلم الذي لا يكون الا فترة او هدنة . لذلك كنا نرى الملوك والامراء يقذفون جيوشها بعضها ببعض لشر العلل وأتفه الاعذار فيتوسلون الى الحرب بشرفهم ، ويا لله ما أدقه وأسرع انفعاله : يكفي نفخة ضعيفة لإحداث لطخة لا تغسل الا بدم عشرة او عشرين او ثلاثين او مئة الف رجل ، على نسبة عدد السكان . ومهما أطلنا الروية فلن نفهم كيف يُغسل شرف الامير بدم هؤلاء المساكين ، ولكننا نعلم ان هذه الالفاظ خلو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من المعنى ، وان الناس يقدمون على الموت ، غير وجلين من أجل ألفاظ . وثمه ما هو أعجب فان الامير يصيب فخراً عظيماً من سرقة ولاية . واذا كان التعدي الذي يأتيه فرد جريء جزاؤه الموت فهو امر ممدوح اذا قام به الملك بمعونة جنوده المرتزقة مظهرين فظاعة لا مثيل لها .

— ١٢ —

ما التاريخ مجموعة أقاصيص اخلاقية او مزيج من الحوادث والخطب البليغة حسبما يكون المؤرخ فيلسوفاً او واعظاً . قد توجد فيه قطع بيانية جميلة ولكن لا ينبغي ان نلتمس فيه الحقيقة ، لان الحقيقة هي في اظهار مابين الاشياء من نسب لازمة ، ولا سبيل الى اثبات هذه النسب لان المؤرخ عاجز عن اتباع سلسلة العلل والمعلولات . انظر : كلما كانت علة الحادث التاريخي من حادث غير تاريخي فان علم التاريخ لا يراها . ولما كان بين الحوادث التاريخية والحوادث اللاتاريخية صلة مكينة نتج عن هذا ان الحوادث لا تتسلسل في التواريخ تسلسلاً طبيعياً بل ترتبط بروابط بيانية صنعية ليس الا . كذلك لا يعزب عن فكرك ان المؤرخين . يميزون بين الحوادث التي تدخل في التاريخ والحوادث التي لا تدخل فيه الا اعتباطا . ليس التاريخ اذاً بعلم لانه مقضي عليه بعيب في طبيعته ان يلزمه غموض الكذب وان يعوزه السياق والاتصال اللذان لا معرفة حقيقية بدونهما . كذلك لا يمكن ان نستخرج من اخبار الامم وسيرها اقل دلالة يرجم بها عن مستقبلها . ولما كانت خاصة العلوم التنبؤ والاخبار عن الحوادث الآتية كما هو مشاهد في الالواح التي تعين فيها بالحساب الاهلة ومد البحر وجزره والكسوفات قبل وقوعها ، فقد أثبتنا ان التاريخ ليس بعلم لان الثورات والحروب لا تضبط بحساب .

— ١٣ —

على مَ تؤلف تاريخاً ؟ اذ ليس عليك الا ان تنسخ من اشهر كتب التاريخ كما هي العادة . ان كان عندك فكر جديد ورأي خاص ، او كنت تظهر الناس والاشياء من وجهة غير مألوفة ؟ فانك اذاً تباغت القارئ ، والقارئ لا يحب ان يُباغتَ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو لا يلتمس في التواريخ الا الحماقات التي يعرفها . فاذا اجتهدت بتعليمه كانت ثمرة جهدك انك حقرته في عين نفسه فأغضبته . لا تحاول إنارة فكره والا صرخ قائلا : انك تسفه عقائده .

— ١٤ —

التغيير شرط جوهري في الحياة . والمدن كالناس تبقى مازالت متغيرة متطورة .

— ١٥ —

ان الحرب اليوم هي عار الانسانية وكانت من قبل فخرها . لقد اوجبتها الضرورة على الممالك فكانت مربية النوع البشري الكبرى . فيها مارس ابناء آدم الفضائل التي تشاد عليها الحضارات وتدعم بها قواعدها : علمتهم الصبر والحزم والاستهانة بالمخاطر ومجد التضحية . و يوم دحرج الرعيان قطع الحجارة الضخمة ليبنوا منها سوراً يحامون وراءه عن نسائهم وثيرانهم — أنشئ اول مجتمع انساني وضمن ترقي الصناعات . وهذا الخير العظيم الذي ننعم به اعني الوطن او المدنية او ذلك الشئ الجليل الذي عبده الرومان ورفعوه فوق الآلهة انما هو ابن الحرب .

— ١٦ —

ينعم المرء اذ يعيش بمخيلته في الماضي نعيم الشعراء ولكن فلنعلم ان سحر الماضي ليس الا من أحلامنا وان العصور الغابرة التي ننشق عرفها بلذة كان لها في جدتها ما لكل الاشياء التي تجري في وسطها الحياة الانسانية : من طعم عادي داع الى الحزن .

— ١٧ —

كبار الشعراء هم لكل الناس . اما صغارهم فأحق بالغبطة ايضاً لان شعرهم لذة للمثرفين الذين لا يقنعون بما يقنع به العامة .

— ١٨ —

لا يستطيع أحد ان يجزم بان المذهب الذي تبدو في النتائج الاولى اضراره ومساويه لن يكون في الغد نافعاً كثير الخيرات . فكل الافكار التي يقوم المجتمع عليها اليوم كانت ضارة متلفة قبل ان تصبح واقية محسنة . و باسم المصالح الاجتماعية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التي يتوسل بها (المسيو برونتيار) حوربت في الماضي مبادئ التساهل والانسانية زمناً طويلاً ٠

— ١٩ —

متى يشتبك البيض بالصفر او بالسود يجدوا أنفسهم مكرهين على إبادتهم اذ لا يُغلب المتوحشون الا بتوحش بالغ الاتقان ٠ وهذا هو الحد الذي تنتهي عنده المشاريع الاستعمارية كلها ٠

— ٢٠ —

لا مراء في انه ستقع ايضاً حروب كثيرة فان الغرائز الوحشية والاطماع الفطرية والكبرياء والجوع التي أقلقت العالم خلال عصور متطاولة ستستمرّ على إقلاقه ايضاً ٠ وهذه الكتل البشرية الكبرى الآخذة اليوم في التألف لم تجد بعد قاعدتها ولم توفق الى توازنها ٠ كذلك فان تداخل الشعوب بعضها في بعض لم ينتظم الانتظام الكافي لضمان الرفه العام بحرية المبادلات و يسرها كما ان الانسان لم يصبح بعد محترماً في نظر الانسان ولم تتساو أجزاء البشرية في دنوها من روح الاشتراك والتعاون لتكون جميعاً كالحجيرات والاعضاء في الجسد الواحد ٠ وليس بمقدر حتى لأحدثنا سناً ان يشهد ختام عهد السلاح ٠ بيد ان تلك الايام السعيدة التي لم نعرفها نحن نحسّ بمجيئها ٠ فاذا مددنا الى عالم الغيب هذا الخط الذي نرى بدايته كان في وسعنا ان نرى مواصلات اوفر واكمل بين الامم والشعوب ، وشعوراً اعم واقوى بالتضامن الانساني ، وتنظيماً افضل للعمل ، و بالنهاية قيام « الدول المتحدة » في العالم باسره ٠ وسيتحقق السلم العام ذات يوم لا لأن البشر يصبحون خيراً مما كانوا (هذا لم يؤذن لنا ان نرجوه) بل لان نظاماً شديداً للاشياء ، وعلماً جديداً وضرورات اقتصادية جديدة ستلزمهم بحالة السلام كما كانت ضرورات الحياة في الماضي ترميهم في حالة الحرب وتبقيهم فيها ٠

— ٢١ —

يلوح لي ان الانسان انما يشقى لافراطه في اجلال نفسه وفي الثقة بالناس ٠ فلو كان رأيه في الطبيعة البشرية اصح واقرب للتواضع لاصبح في احكامه على نفسه وعلى الناس ارق واحلم ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ٢٢ -

سآمة الشعراء سآمة مذهبة فلا تفرطوا في الرثاء لهم : ان الذين يغنون قادرون على ان يسحروا بأسهم . ولا سحر اقوى من سحر الكلام . والشعراء كالاطفال يعزّون انفسهم بالصور .

- ٢٣ -

العمل يجعل الحياة سعيدة أحياناً ، ومحتملة دائماً .